من ثنايا التاريخ

الجواسيس الانجليز

فى عهد الثورة الأمريكية

لم تكن الثورة الأمريكية أو حرب الحرية كما يسميها المؤرخون سوى حرب أهلية نشبت بين — سكان أمريكا الانجليزية لا رغبة فى الانفصال عن انجلترا ولا بغية التمتع بالاستقلال عنها ، ولكنها حرب بين فريق وفريق وحزب وآخر ، وخشى الناس فى ذلك الحين أن تتطور هذه الثورة إلى حرب أوربية طاحنة وبخاصة بعد أن تدخلت بين الفريقين المتحاربين فرنسا وأسبانيا ، فعمل هذا الغرض الحكومة الانجليزية على أن تبذل كل ما لديها من جهد للوقوف على أسرار العلاقات التى عساها أن تكون بين الأمريكيين والفرنسيين ، فأنشأت إدارة واسعة النطاق للجاسوسية المنظمة وجعلت مركز هذه الادارة مدينة باريس ، وأخذ رجال هذه الادارة فى مباشرة عملهم الخطير ، إلا أن الملك جورج الثالث الذى كان فى ذلك العهد يقبض على السلطان بكلتا يديه ويدير شؤون الدولة بمفرده كان يمقت الجاسوسية ويبغض الجواسيس فبحث أمر هذه الادارة بحثا دقيقا فعلم أن بعض أفرادها يستغلون مناصبهم فى التلاعب بأسعار البورصة ، ولذلك لم يكن ليصدق تلك الأخبار الخطيرة التى كانوا يبلغونها لحكومته عن العلاقات بين فرنسا وأمريكا والمحالفة السرية المبرمة بينهما ، وظل فى عناده حتى فات الوقت وضاعت الفرصة ودوهم بالخطر فى ساعة من ساعات المحنة فى تاريخ انجلترا

ولقد كان من أهم الأنباء التى نقلها هؤلاء الجواسيس إلى انجلترا أن مجلس الكونغرس الأمريكى أو بعبارة أخرى مجلس الولاة الثلاثة عشر ، أوفد إلى باريس فى سنة ١٧٧٦ وهى إحدى سنى الثورة نظر مدوسة من أخلص الخلصاء للحكومة يدعى (سيلاس ديان) ليتفق مع الحكومة الفرنسية على توريد السلاح والذخائر للمحاربين ، وليحصل منها على أنباء ما يجرى فى انجلترا من الاستعداد لهذه الحرب ؛ فعلى أثر وصوله إلى فرنسا أرسل خطابا إلى الدكتور ادوارد بانكروفت فى لندن وأرفق به تحويلا بمبلغ ثلاثين جنيها انجليزيا وطلب إليه أن يحضر لباريس وأن ينفق من هذه النقود على سفره ، وكان الدكتور بانكروفت

أمريكيا من ولاية (ماساشتيس) الشهيرة يقيم بلندن لاجراء بحوث فى علم النبات والكيمياء كان من شأنها أن تؤهله لعضوية الجمعية الملكية ، أما الصلة بينه وبين سيلاس فكانت منذ عهد الدراسة إذ كان الدكتور بانكروفت تلميذا له

ولما وصل الخطاب إلى الدكتور بانكروفت قصد إلى باريس توا وأبلغ كل ما لديه من معلومات لأستاذه سيلاس ، كما عرف منه أمرارا غاية فى الخطورة منها أنه تفاوض مع السكونت فرجين وزير خارجية فرنسا وأن الملك لويس السادس عشر لم يقطع بعد فى دخول فرنسا الحرب الأمريكية لمدم وثوقه بما سوف يعود منها على فرنسا من غنم وربح ، وأن وزير الخارجية لم يقرر الاتفاق مع سيلاس مباشرة ، كما علم منه أن بيتا تجاريا تأسس فى باريس مستترا تحت اسم (هورتاليس وشركاه) لشراء الأسلحة والذخائر بمال تمده به الخزانة الفرنسية سرا وإرسال هذه الأسلحة إلى امريكا ، وقد اتضح فيما بعد أن هذه الصلة أطالت فى عمر الحرب الأمريكية سنة كاملة حتى أحرز الأمريكيون النصر فى موقعة (ساراتوجا) وأسروا جيشا انجليزيا برمته ، فأغرى ذلك الانتصار الحكومة الفرنسية على الدخول فى الحرب علنا وعلى عقد محالفة مع مجلس الكونغرس سالف الذكر

علم الدكتور بانكروفت كل هذه التفصيلات فسارع إلى نقلها لحكومة لندن كما نقل إليها فى فرص اخرى كثيرا من الأنباء التى اعتبرها اللورد تورث رئيس وزراء انجلترا من اخطر المعلومات وأغلاها قيمة

ومع هذا كله فأن اللورد تورث والمستر وليم ايدن وكيل وزارة الداخلية الانجليزية ورئيس إدارة الجاسوسية سالفة الذكر لم يثقا بالدكتور بانكروفت الثقة العمياء بل أرصدا له الرقباء وأحاطوه بالجواسيس فكانت جاسوسية على جاسوسية كما يقولون فأخذ الجواسيس الذين يراقبون الجاسوس بانكروفت يحصون أنفاسه ويفضون خطاباته بمصلحة البريد ، وقد أفضت هذه المراقبة إلى أمور عجيبة منها أن بانكروفت كان يتقاضى أموالا طائلة لخدمة الحكومة الامريكية المادية للحكومة الانجليزية فضلا عن مبلغ ٥٠٠ جنيه انجليزى كانت تدفع له من الحكومة الانجليزية ثمنا لجاسوسيته ، فكان يبلغ سيلاس أنباء الجنود الانجليزية وحركاتها والفرق التى ترسل منها لميدان الحرب فى أمريكا ، وكان هو والمستر توماس وولبول أحد أعضاء البرلمان الانجليزى يهربان المؤن إلى الجيوش الامريكية ويربحان من وراء ذلك أموالا طائلة ، ومع هذا كله كان الدكتور بانكروفت أهون شأنا واقل خطرا من جاسوس آخر يدعى بول وتورث وهو أمريكى الأصل ، أنيق الملبس بارز الشخصية ، معروف فى جميع أندية باريس ولندن ، لا مطمن فى خلقه وسلكه ، ولا تتسرب اليه الشكوك ولا تتجه إليه الريب ، وكان السيد العجيب يتظاهر بالعطف على انجلترا ، ويعمل على تأييد قضيتها فى الحرب الأمريكية بل كان أكثر من هذا وذاك يأبى أن يتقاضى من الحكومة البريطانية نفقات

جاسوسيته ، يرفض أن يتقاضى المرتب الضخم الذى عرضته عليه هذه الحكومة ثمنا لمعلوماته القيمة التى بعث إليها بها بين فترة وأخرى عن حركات الأعداء وسكناتهم فمالت إليه قلوب كبار الساسة ورجال الدولة . فكان فى نظرهم الرجل الكريم والرجل الطيب القلب حتى أن اللورد نورث رئيس الوزارة البريطانية كتب إلى زميل له يقول «لقد أخرجت فأن هذا السيد النبيل يرفض كل مبلغ يعرض عليه تعويضا لخدماته وأسفاره الشاقة فى سبيل قضية البلاد

يتضح من هذا أن إيمان رجال الدولة وثقتهم بهذا « السيد النبيل » ما كان يعتورها الشك ولا يتسرب إليها الريب . وظاهر الأمر أن السيد بول وتنورث ما كان يطمع إلا فى لقب البارون وفى مقعد محترم فى مجلس النواب البريطانى ولكن أحدا من الوزراء لم يستطع عرض هذا الأمر على الملك جورج الثالث لأنه كان يكره الجواسيس ويمقت الأنباء المزعجة التى تبلغ إلى جلالته عن فرنسا وإسبانيا وتعكر عليه صفاءه وتفسد مزاجه فلم يفز وتنورث بشىء من أحلامه وآماله ويظهر ان زملاءه فى أمريكا لم يقفوا على أعماله فى انجلترا ولا على حركاته فى التجسس عليهم فلما وضعت الحرب أوزارها انتخب فى مجلس إدارة كلية ولاية (ماساشيس) الأمريكية وهو المنصب الذى كان يتوق إليه من زمان بعيد

ولنعد إلى المهمات التى قام بها جاسوسنا المحترم والألاعيب الخفية التى تخللت هذه المهمات الخطيرة . فقد أوفد بول وتنورث إلى باريس للوقوف على آخر أنباء المحالفة الفرنسية الأمريكية والحيلولة إن أمكن دون إبرامها فاتصل بمندوبى الحكومة الأمريكية وهم أعداؤهم بنيامين فرنكلين ، وآرثر لى ، وجون أدامس ، وحسن لاحدهم وهو بنيامين فرنكلين الذهاب إلى لندن بعد تأمين حياته والمفاوضة فى عقد صلح مع الحكومة البريطانية بشروط متواضعة ولكن فرنكلين لم يلب هذا المطلب بل ظل فى باريس . وعندئذ فاوض وتنورث الحكومة البريطانية فى الأمر فأرسلت له خطابا بأنها مستعدة لعقد صلح شريف عادل مع أمريكا . وطلبت إليه أن يقف على شروط المندوبين الأمريكيين فباع هذا الخطاب لبنيامين فرنكلين الذى استغله استغلالا كبيرا إذ عرضه على الوزارة الفرنسية على زعم أن انجلترا تطلب الصلح فاستطاع ان يحصل على المحالفة الفرنسية الامريكية الشهيرة المعروفة بمحالفة ٧ فبراير سنة ١٧٧٨ وفى الوقت نفسه كان وتنورث ينذر الحكومة البريطانية بعقد هذه المحالفة قبل توقيعها ليثبت لها أنه على علم بما يجرى هناوهناك وأنه خادمها الصادق وأمينها الصدوق

لكن أمر هذا الجاسوس وزميله الدكتور بانكروفت افتضح بعد توقيع المعاهدة بأيام فقرا إلى أمريكا ثم عادا إلى انجلترا بعد زمان طويل وعاشا فيها عيشة البذخ والترف حتى مات الأول فى سنة ١٧٢٣ والثانى فى سنة ١٨٢١ .